نظم التّدريس والتّعليم بمنطقة تَوات خلال الفترة العثمانية دراسة تحليلية.

The Teaching and Education Systems in the Twat Region During the Ottoman Period: An Analytical Study.

مجاهدي إبراهيم.

-مخبر التّراث الأثري وتثمينه؛ جامعة أبي بكر بلقايد؛ تلمسان (الجزائر).

- البريد الإلكتروني: *brahim.medjahdi@univ-tlemcen.dz*

تاريخ الإرسال: 2025/04/11؛ تاريخ القبول:2025/06/11؛ تاريخ النشر:2025/06/15.

الملخص:

شكّل إقليم توات قلعة من قلاع العلم بالصحراء الجزائرية خلال العهد العثماني، فقد حافظت على طابعها المالكي خاصة خلال القرن 18 و19 الميلاديين، حيث برز للوجود مختلف المراكز التعليمية والتربوية من خلال الكتاتيب والمدارس الدينية والزوايا.

من خلال بحثنا هذا سنحاول إزالة اللبس حول قضية التعليم والتدريس في منطقة توات من خلال الحديث عن أصل التسمية والمجتمع التواتي ومكوناته وفعالياته ووسائل التدريس والتعليم في إقليم توات من مدارس وزوايا وكتاتيب وعلماء ومشايخ أثناء الفترة الحديثة.

الكلمات المفتاحية: نظام التعليم؛ الفترة العثمانية؛ منطقة توات؛ دراسة تحليلية.

Abstract:

The Twat region is considered a beacon of knowledge in the Algerian Sahara during the Ottoman era, where it maintained its Maliki character in the e18 and 19centuries. This period witnessed a flourishing of educational and pedagogical centers, including Quranic schools, religious schools, and zawiyas.

In our research, we aim to clarify aspects of education and teaching in the Twat region by exploring the origin of the name, the components of the TWATI community, and the various means of education, including schools, zawiyas, and Quranic schools, as well as the role of scholars and sheikhs during that time.

Keywords: Education system; Ottoman period; Twat region; Analytical Study.

مقدمة:

عرف العالم الإسلامي خلال الفترة الحديثة العديد من التحولات العميقة التّي مست كافة الأصعدة السياسية والاجتماعية والثقافية، وقد تأثرت بهذه التحولات مختلف الأقطار الإسلامية وفي مقدّمتها بلاد المغرب الإسلامي التي شهدت هي الأخرى وبعد سقوط دولة الموحدين ضعفا سمح باحتلال الإسبان لسواحلها، وعلى إثر ذلك فقد كان امتداد العثمانيين نتيجة حتمية للصراع الذي انتقل ميدانه من أوروبا الشرقية إلى الحوض الغربي للمتوسط.

لم يخرج المغرب الأوسط عن هذا السياق فقد وصل الأتراك العثمانيون للمنطقة في فترات متقدمة من القرن السادس عشر، واستقر

تـأثيرهم بالمنـاطق السـاحلية وبعـض الـدواخل في حـين بقيـت المنـاطق الصحراوية بعيدة عن تأثيرهم العام.

شكّل إقليم توات قلعة من قلاع العلم بالصحراء الجزائرية خلال العهد العثماني، فقد حافظت على طابعها المالكي خاصة خلال القرن الثامن عشـر والتاسـع عشـر الميلاديين، حيـث بـرز للوجـود مختلـف المراكـز التعليميـة والتربويـة مـن خـلال الكتاتيـب والمـدارس الدينيـة والزوايا.

مـن خـلال بحثنـا هـذا سـنحاول إزالـة اللبس حول قضـية التعليم والتـدريس في منطقـة تـوات مـن خـلال الحـديث عـن أصـل التسـمية والمجتمـع التـواتي ومكوناتـه وفعالياتـه ووسـائل التـدريس والتعليـم في إقليم توات من مدارس وزوايا وكتاتيب وعلماء ومشايخ أثناء الفترة الحديثة.

وللإجابة عن هذه الإشـكالية قسّمنا بحثنـا إلى أر بعة عناصـر أساسية، تحدثنا في الفصل الأول عن التعريف بإقليم توات من خلال التعرض لأصل التسمية والمجتمع التواتي، بينما نسعى في الفصل الثاني إبراز النشاط التعليمي للمنطقة من خلال إبراز التعليم في توات قبل وأثناء العهد العثماني ومنهج التدريس في توات، ثم في الفصل الثالث سنتطرق فيه إلى وسائل التعليم في توات من مدارس دينية وزوايا وعلماء ومشايخ.

1. موقع إقليم توات وأصل تسميته:

يعتـبر إقلـيم تـوات أحـد الحواضـر الكـبرى العلميـة بـالمغرب الأوسـط(الجزائـر) ولعـل ذلـك يرجـع بالدرجـة الأولى إلى الموقـع المتميـز الذّي يحتله.

1.1. الموقع:

إن الحديث عن إقليم توات ولا سيما في العهد العثماني يقتضي منا تحديد موقعه بالضبط، خاصة إذا علمنا أنّ الأتراك العثمانيون لم يلحقوا بالمنطقة إذ أنّهم تركزوا في المناطق الشمالية فلم يمتد نفوذهم إلى المناطق الصحراوية كلّها، وذلك لوقوع المنطقة في أقصى الجنوب الغربي للجزائر الحالية.

منطقة توات هي إحدى مناطق الإقليم التواتي الثلاثة -قورارة، توات، تيدكلت -(جرادي، 2010، ص: 375)، ونشير هنا إلى اختلاف آراء المؤرخين والرحالة في تحديد إقليم توات حتّى وجدنا من وصفه بأنّه إقليم بسيط يمتد بين قصور تسابيت شمالا إلى قصور رقان جنوبا، وهنا يذكر محمد بن عبد الكريم التمنطيطي أنه إقليم مركب يتألف من ثلاث مناطق هي: هضبة تادميت وقرنه الجنوبي منطقة تيدكلت أما القرن الشمالي فيتمثل في منطقة قورارة (جرادي، 2010، ص: 376)، ونظرا للمكانة الكبيرة لتوات تمّ إطلاق اسمها على الإقليم كلّه، حيث تقع ما بين نهايات الهضبة العليا للقرارة التي تشكل الحافة الشرقية لوادي مسعود والحافة المقابلة للعرق الغربي، فهي إذن تقع ما بين هضبة تادميت شرقا وعرق الرمل غربا، ومن الشمال منطقة قورارة ومن الجنوب تيدكلت حيث تضم المنطقة الكثير من القصور الشاهدة على مدى تأثيرها الحضاري. (جعفري، 2018، ص: 28)

أما عن موقعها الفلكي فينحصر بين خطي طول 1 شرقا و3 غربا، وبين دائرتي عرض 20و30 شمال خط الاستواء(صديق، 2011، ص: 40).

2.1. أصل التسمية:

تضاربت أراء المؤرخين والرحالة حول أصل تسمية هذا الإقليم فيرى الشيخ عبد الرحمن السعدي في كتابه "تاريخ السودان" أنّ سلطان مالي كنكن موسى وهو في طريقه إلى الحج ومعه جماعة عظيمة من الجند والعبيد تخلف عنه كثير من أصحابه لوجع رجل أصابهم يسمى "توات" فانقطعوا بها وتوطنوا فيها فسمي الموضع بتلك العلة(بقادر، 2014، ص: 87)، بينما يرجعه البعض إلى عهد دولة الموحدين فقد كانت أرضا كثيرة الخيرات فدأبوا على أخد ما فيها من أتوات ومن يومها غلب عليها هذا الوصف فصار أهلها يعرفون بأهل الأتوات ثم حرفت فأصبحت توات(حوتيه، 2007، ص: 38).

ويرى الشيخ مولاي الطاهري الإدريسي الحسني أنها سميت بهذا الاسم لأنها تواتي وتليق بالعبادة لأن كل المنقطعين إليها تواتيهم العبادة فيها (بقادر، 2014، ص: 88)، أمّا ماندوفيل *Mandeville* فيشير إلى أنّ اسم توات أطلقه الطوارق والعرب على مجموعة من الواحات الواقعة في المنخفض العميق لوادي الساورة ووادي مسعود، بينما ومن جهة أخرى ينبّه مؤرخ توات محمد بن عومر المبروك بوداوي إلى أنّ أصل التسمية يعود لعهد الفتح الإسلامي، وبالضبط إلى عهد عقبة بن نافع الفهري سنة 62هـ/681م حينما سأل عن المنطقة إدا كانت تواتي وتليق بنفي العصاة فأجابوه بأنها تواتي لذلك(بقادر، 2014، ص: 89).

والمتتبع لآراء المؤرخين يستشف إسهابهم في ذكر أحد الآراء التي يحتمل أن تكون صائبة وهو الرأي الذي شرحه الشيخ سيد البكري حيث قال: "...في سنة 518هـ وحين غلب المهدي سلطان الموحدين على بلاد المغرب بعث قائديه علي بن الطيب والطاهر بن عبد المؤمن إلى أهل

الصحراء لاستخلاص الإتوات فعرف هذا الإقليم بأهل الأتوات" وقد علّق على هذه الرواية الشيخ البكري معتبرا إياها الأصح وأنها حرّفت من أهل الأتوات وبحذف المضاف إلى توات(مريوش، 2007، ص: 182).

من خلال ما سبق يتضح أنّ أصل كلمة توات شمل عدة تفسيرات منها ما كان تاريخيا ومنها ما هو لغوي، ويمكننا في هذا الصدد استبعاد التفسير الذي ربطها بدفع الإتاوات ذلك أنّ أهل توات أدّوا المغارم والإتاوات لجميع الدول التي حكمت بلاد المغرب كما أنها لو ارتبطت بالإتاوات لتعددّت المسميات لتعدد الأقاليم التي كانت تؤدي المغارم، ويمكن اعتبار أصل الكلمة قديم يعود إلى الفترة البربرية وهذا ما ذهبت إليه الباحثة بن عبد المؤمن بهية التي رجحت الأصل البربري للاسم (بن عبد المؤمن، 2008، ص ص: 03 -04)، كما أنّ التسمية تبدأ بحرف التاء وهذا شأن غالبية التسميات غير العربية -البربرية - مثل: تسابيت، تمنطيط، تبلكوزا، توات...إلخ"(بقادر، 2014، ص: 89).

فتوات إذن قطاع صحراوي تختلف تسمياته باختلاف اللغات العربية والبربرية، إلا أنّه ومع نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر الهجري استبدل الاسم بأدرار التي تعني الحجر أو الجبل(صديق، 2011، ص: 35).

2. مكونات مجتمع توات:

لا خلاف في كون منطقة توات كانت مجالا يستقطب العديد من العناصر البشرية، ويرجع ذلك إلى ما تمثّله المنطقة من وزن اقتصادي وعلمي وتجاري واجتماعي، فقد كانت منطقة عبور واستقرار بامتياز.

1.2. أصل سكان توات:

كان إقليم توات مفتوحا على هجرة القبائل المختلفة وذلك على فترات متعاقبة منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، بل هناك من يرجّح وجود هجرات تعود للعصور القديمة، هذا الانصهار بين مختلف تلك الشعوب ولد مجتمعا تواتيا يتميز بانقسامه إلى فئات تتباين عن بعضها البعض تباينا ظاهرا، فنجد البربر وهم السكان الأصليون والعرب الذين توافدوا بعيد الفتوحات الإسلامية والزنوج الذين استقدموا من بلاد السودان للخدمة في البيوت والقصور والمعروفين بالحراثين(بقادر، 2014، ص: 90).

وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم فئات المجتمع التواتي إلى العناصر التالية:

البربر:

يعتبر البربر من أول السكان استقرارا في المنطقة وبالخصوص قبيلة صنهاجة وزناتة بمختلف فروعها وذلك قبل الفتح الإسلامي بسنوات، ودانوا في البداية باليهودية والمسيحية ثم اعتنقوا الإسلام مع الفتوحات وكانت قبيلة لمتونة الصنهاجية من أول القبائل استقرارا بالمنطقة، ففي هذا الصدد يقول محمد بن باب حيدة: "...إنّ أول من نزل المنطقة هم اللمتون أولاد يوسف بن تاشفين حين انكسرت دولتهم بالمغرب والأندلس..."(جعفري، 2018، ص: 32).

ثم توالت هجرات القبائل فالتحق بالمنطقة قبيلة زناتة، وهذا ما يؤكده المؤرخ المغربي الناصري السلاوي الذي ذكر أن قبائل زناتة استقرت بإقليم توات وشيدت القصور مثل قصر بودة وتمنطيط

وتسابيت وتيقورارين التي كان أكثر سكانها من زناتة(جعفري، 2018، ص: 35).

العرب:

هم الوافدون مع الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب على يد الفاتحين الأوائل، حيث توالت هجراتهم في أزمنة متباعدة مثل: "الخنافسة، أولاد محمد، المحارزة، أولاد طلحة، أولاد غانم، أولاد منصور، أولاد باحمو... وغيرهم"(بقادر، 2014، ص: 90)، وقد كان لتلك الهجرات وقع إيجابي حيث مكنت للغة العربية مما مكّن للدين الإسلامي من الانتشار في تلك الأصقاع.

ومع مرور الوقت وفي فترات متقطعة هاجرت جماعات عربية قادمة من جنوب الجزيرة العربية والذين كانوا ينتجعون بالصحراء ويرعون الإبل، ومع تزايد أعدادهم وضعف أمراء بني مرين فلم يمض وقت طويل حتى استفاد التواتيون من الموقع الوسط للمنطقة واشتغلوا بالتجارة والمبادلات وشكلوا همزة الوصل بين أسواق شمال المغرب العربي وأسواق بلاد السودان الغربي، ليتبوأ هذا الإقليم مكانة كبيرة خاصة في العهد العثماني(فرح، 1977، ص: 46).

ولأن بلاد المغرب الإسلامي عرفت استقرار بعض الدول التي يعود نسبها للعلويين فقد تميزت في المجتمع التواتي طبقة عرفت بالأشراف والتي حظيت باحترام وتقدير كبيرين، حيث امتلكت الحدائق والبساتين التي يشتغل فيها العبيد والجواري وشكلوا خلال العهد العثماني جماعة مستقلة لها محاكمها الخاصة التي يتولاها أحد رؤسائهم الذي يختارونه من بينهم(فرح، 1977، ص: 47).

الموالي، الزنوج:

تعرف هذه الطائفة بالحرّاطين وهي جماعة قوامها العبيد المستقدمين من بلاد السودان للاستغلال في البساتين والزراعة وغالب الظن أن كلمة الحراطين مشتقة من الحرث والزراعة وهو النشاط الذي كانوا يمارسونه(بقادر، 2014، ص ص: 90 -91).

بالإضافة إلى العناصر السابقة عرفت المنطقة تواجدا يهوديا ونستشف ذلك من الحركة الإصلاحية التي تبناها الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي في القرن الخامس عشر الميلادي(مقلاتي، 2019، ص: 72)، وهذا الأخير هو أحد علماء القرن الخامس عشر الميلادي ولد بتلمسان على الأرجح سنة 1438م، كما اشتهر بمحاولته الاصلاحية التي عارضه فيها الشيخ العصنوني، وقامت لإصلاح مفاسد ومنكرات اليهود الذين لم يحترموا قواعد أهل الذمة في البلاد الإسلامية(الميلق، 2012، ص: 98).

3. النشاط التعليمي والتدريسي للمجتمع التواتي:

حظي التعليم والتدريس في منطقة توات باهتمام كبير وذلك منذ وصول الجموع الأولى للمسلمين الفاتحين إلى المنطقة في القرن الأول للهجرة.

1.3. التعليم في توات قبل العهد العثماني:

عرف الوضع الثقافي والتعليمي انتعاشا كبيرا منذ الفتوحات الإسلامية، حيث حملت هذه الأخيرة معها حركة ثقافية وعلمية واسعة ووفد على المنطقة العلماء والمشايخ وأنشأت الزوايا والمدارس، وأقبل التواتيون على تلقي العلم والمعرفة من أفواه العلماء وذلك في شتى الميادين الشرعية واللغوية(بقادر، 2014، ص: 90).

استمر هذا الإقليم في نشاطه الثقافي والتعليمي طيلة عصر الدويلات التي تعاقبت على بلاد المغرب وعرف انتعاشا كبيرا في القرن الخامس عشر بعد هجرة الشيخ العالم قطب زمانه محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي نزل بقرية أولاد سعيد بتمنطيط في حدود سنة 1452م وجلس هناك للتدريس وبنى زاويته القادرية فذاع صيته في الآفاق واشتهر بمواقفه المناهضة لليهود(الميلق، 2012، ص ص: 97 -98).

2.3. التعليم في العهد العثماني:

عرف إقليم توات خلال العهد العثماني أزهى عصوره خاصة في القرنيين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين المصادفين للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين أين يعرفان بالعصر الذهبي في تاريخ توات، والسبب في ذلك هو الزخم الكبير من العلماء الذين توافدوا زرافات ووحدانا في أثناء هذه الفترة، وعكفوا على دراسة آداب اللغة وأصول الدين علاوة على انشغالهم بالتدريس في المساجد والزوايا وغيرها من مؤسسات التعليم التي كانت منتشرة أنذاك حيث لم يخل قصر من قصور توات من زاوية أو مدرسة قرآنية أو مسجد(بقادر، 2014، ص: 91).

وهكذا كان هذا الإقليم على أعتاب نهضة علمية وفقهية متأخرة، ويعزو بعض المؤرخين هذا التأخر إلى جملة من العوامل منها أهمّها موقع الإقليم المنعزل مقارنة بالمدن الأخرى كالقيروان وبجاية وتلمسان، إضافة إلى قسوة البيئة الصحراوية المتّصفة بالحرارة والجفاف وهذا ما يشق على العالم وطالب العلم وغياب الاستقرار كون المنطقة شكلت مسلكا تجاريا نحو أسواق إفريقيا(جرادي، 2010، ص: 379).

3.3. التدريس في توات:

تبدأ مراحل التدريس في توات عادة في الكتّاب، حيث يتلقّى التلميذ مبادئ القراءة والكتابة أولا ثم يشرع في حفظ القرآن الكريم ثانيا على يد معلمين تفرغوا لهذا العلم، وكان غالبية هؤلاء من طبقة الحراطين، من جهة أخرى كان على كل أسرة يتعلم أبناءها في الكتّاب أن تخصّص حصة سنوية من التمر والقمح لمعلم الكتّاب مقابل تعليمه وعلى التلميذ يوميا أن يزود معلمه بحصة من نوى التمر لإطعام دابته(فرح، 1977، ص: 98).

بعد إتمام الطفل لتعليمه الابتدائي والمتوجّ بحفظ القرآن الكريم تقيم أسرة المتعلّم حفلة عظيمة بهذه المناسبة، وكنوع من العادات تقوم أسرة التلميذ بطلي يدي التلميذ ورجليه بالحناء وإلباسه حلة جديدة وجلوسه في مكان عال لتهنئته بهذا النجاح(فرح، 1977، ص: 98).

ينتقل التلميذ إلى مرحلة تعليمية أرقى من سابقتها وتتم في الزاوية أو المسجد ويتولى التعليم في هذه المرة فقيه الزاوية أو إمام المسجد، حيث يجلس الطلبة على هيئة دائرة في صحن الزاوية أو المسجد والشيخ في وسطهم ويحمل الطلبة الألواح والكتب، ويستمر الدرس في الغالب من صبح كل يوم إلى غاية منتصف النهار ثم يستأنف بعد صلاة العصر إلى غاية صلاة المغرب ويشمل ذلك كل أيام الأسبوع ما عدا الجمعة والأعياد والمواسم الدينية(فرح، 1977، ص: 99).

أما مدّة الدراسة فهي غير محددة ومتوقفة على مدى استيعاب التلميذ أو الطالب، حيث يتعلم هذا الأخير خلال المرحلة القانونية قواعد وآداب اللغة العربية من نحو وصرف وبيان وعروض ومنطق مع الحساب والخبر، ومن العلوم الدينية الحديث والتفسير والفقه على

مذهب الإمام مالك، وعند انتهاء الطالب يعقد له شيخه امتحانا وبعد نجاحه تقام له حفلة وتقدّم له التهاني ويعود إلى أهله سعيدا بهذا النجاح(فرح، 1977، ص: 100).

وفي سياق آخر حرص التواتيون على تزويد الزوايا بإقامات للطلبة على أن يأتي كل طالب بمؤونته حتى نهاية المرحلة الدراسية، إضافة إلى دفع مستحقات ومصاريف التعليم من قبل الأولياء أما الفقراء فيستفيدون من ريع الأملاك الموقوفة من قبل أثرياء التواتيين، هذا ما أسهم في مساعدة الكثير على إتمام دراستهم(فرح، 1977، ص: 101).

بعد فراغ الطلبة من الدراسة في المساجد أو الزوايا يواصل هؤلاء دراستهم عند مشايخ آثروا العزلة والخلوة والتعبد، ويحصلون من هؤلاء على إجازات علمية وأدبية، ومن هؤلاء نذكر الشيخ أبا الأنوار عبد الكريم التنلاني الذي أنشأ زاوية بتديكلت بعد عودته من بلاد التكرور، فتوافد عليه الطلبة ليأخذوا من علمه، كما وفد على منطقة توات سنة 1129هـ الشيخ عمر بن عبد القادر التنلاني الذي كان أستاذا بجامع القرويين بفاس(جعفري، 2018، ص: 208).

4. وسائل التعليم والتدريس في منطقة توات:

تمثّل الزوايا والمدارس العصب المؤسّساتي للتعليم، فقد لعبت هذه المنشآت دورا بارزا في استمرارية وديمومة طلب العلم وانتشاره بالمنطقة.

4. 1. الزوايا والمدارس الدينية:

الزوايا:

تعد الزاوية مؤسسة تربوية تعليمية اجتماعية نتجت في الأساس لتغطية حاجات المجتمع، حيث تتباين تلك الحاجات بتباين المجتمعات،

وأصل تسميتها مشتق من الفعل انزوى أي ابتعد وانقطع للعبادة، وهي عبارة عن مباني ذات طراز معماري إسلامي بنيت على الأضرحة من قبل المتصوفة والمرابطين في أماكن بعيدة عن صخب العمران وذلك للتعبد ثم تطور المفهوم ليصبح بمثابة مدرسة دينية(مريوش، 2007، ص: 149).

ومن هذا المنطلق لعبت الزوايا التواتية دورا كبيرا في النشاط التربوي والتعليمي للمجتمع التواتي، أما عن ظهور هذه الزوايا في المنطقة فتشير الكتابات التاريخية أن أقدم الزوايا يعود للقرن السادس الهجري على يد الشيخ مولاي إسماعيل بن علي، واستمر الأمر على هذا المنوال إلى غاية القرن الثالث عشر للهجرة والذي شهد زخما كبيرا من الزوايا كانت مهمتها منصبّة على الافتاء والتعليم القرآني إضافة إلى الوظائف الاجتماعية والجهادية(قصباوي، 2017، ص: 546).

ويجمع المؤرخون على أنّ ظهور الزوايا في منطقة توات خلال هذه الفترة يرجع إلى استقرار مجموعة كبيرة من العلماء منذ فترات متقدمة بداية من القرن السادس عشر الميلادي.

وفي سياق آخر تنوعت مهام الزوايا التواتية بين مختلف الأنشطة المقدمة، فنجد الزوايا العلمية التي ركزت على تعليم الناس أمور دينهم واستقبال الطلبة، والزوايا الخيرية التي مهمتها اجتماعية كاستقبال الضيوف وأبناء السبيل والعابرين وتوفير المأكل والمشرب والمبيت، والزوايا الصوفية التي ارتبطت بالجانب الروحي كترديد الأوراد والأذكار الصوفية(باشيخ، 2015، ص: 98).

المدارس الدينية:

إنّ المتتبع لمراكز الإشعاع العلمي في منطقة توات يلتبس عليه الأمر في تحديد وتمييز الزوايا عن المدارس الدينية، ولكن يمكن التمييز بينهما على أساس الوظائف فإذا كانت المهمة الرئيسية للزوايا الجانب الروحي من ترديد الأوراد والأذكار الصوفية إضافة إلى الجانب الخيري من إيواء عابري السبيل والتكفل بهم وإعلان الجهاد والتعبئة، فإنّ المدارس الدينية قد اختصت بالعلم الشرعي من تحفيظ للقرآن الكريم وتعليم مختلف العلوم الأصلية والفرعية، ورغم ذلك إلّا أنّ هذا الأمر لم يمنع المدارس من القيام ببعض مهام الزوايا كما لم يمنع الزوايا من القيام من بعض مهام المدارس الدينية(قصباوي، 2017، ص: 546).

وعلى هذا الأساس ارتبطت المدرسة الدينية بتوات بالهدف والنظام والمنهج التعليمي فهي مراكز علمية متخصصة في تحفيظ القرآن وتعليم العلوم الشرعية يسهر عليها أئمة ومعلمون وإداريون يسهرون على تطبيق القوانين الداخلية لنظام الدراسة، حيث اشتهرت بالمنطقة العديد من المدارس كتلك التي أنشأت في منطقة أقسطن ومركز بني تامر الذي أنشأ خلال منتصف القرن الثالث عشر للهجرة وبالضبط سنة1245هـ(قصباوي، 2017، ص: 547).

2.4. الكتب المتداولة والعلماء والمشايخ:

الكتب المتداولة:

تباينت الكتب المتداولة في منطقة توات تبعا للمواد المدرسة فنجد القرآن الكريم على رأس تلك الكتب فهو المادة الرئيسية، إضافة إلى الحديث والنحو وعلوم العربية والشعر والحساب والفقه والعقيدة، ففي الفقه ارتبطت توات بالمذهب المالكي ارتباطا وثيقا،

حيث نجد من الكتب المتداولة: متن ابن عاشر المتضمن لأبواب الفقه من صوم وصلاة وحج وعقيدة، وكتاب الرسالة لأبي زيد القيرواني وهو كتاب تعليمي للصبية، إضافة إلى مختصر خليل الذي جمع فيه الصحيح وجرّده من الخلاف علاوة على كتب أخرى ككتاب "معين النبيل في شرح مختصر خليل" للشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي(جعفري، 2018، ص: 204).

لذلك فمعظم الكتب المتداولة في منطقة توات هي كتب مالكية المذهب، وذلك نابع من حالة المجتمع وتمسّكه بالمذهب المالكي منذ فترات قديمة تعود لعهد المرابطين الصناهجة الملثمين.

العلماء والمشايخ:

لا تكتمل العملية التعليمية التعلمية دون توفر ثلاثة أركان: المتعلم والمنهاج والمعلم، لذلك عرفت المنطقة توافد علماء كثر برزوا في علوم مختلفة ونافسوا علماء القيروان والقاهرة، فكان لهم الفضل الكبير في بعث الحركة الفكرية من خلال ما توفر لديهم من إمكانات بسيطة من مدارس وكتاتيب وزوايا.

ومن بين هؤلاء العلماء نجد الشيخ سيدي عبد الكريم بن محمد بن أبي محمد التواتي (ت1042هـ)، والشيخ عمر بن عبد القادر التنلاني الذي اشتغل أستاذا بجامع القرويين لردح من الزمن قبل عودته إلى توات سنة 1129هـ واستقراره بزاويته وتفرغه للتعليم والتعبد، ومنهم الفقيه عمر بن عبد الرحمن الأموي التنلاني الذي اعتزل في زاويته التي بناها للتعبد والتعليم إلى أن وافته المنية سنة 1211هـ(جعفري، 2018، ص ص: 99 -100).

ويذكر صاحب كتاب "جوهر المعاني" أن الشيخ عبد اللّه بن أحمد الحبيب البلبالي كان من المشتغلين بالتدريس طوال حياته، وكانت له محبة كبيرة للطلبة المشتغلين بالتعليم حيث كان ينفق عليهم من ماله الخاص، إضافة إلى الشيخ محمد بن عبد اللّه الأدراري الذي تتلمذ على يديه العديد من الطلبة الذين توافدوا عليه، وكان يقول دائما: "...**أنا عين توات من لم يشرب من مائي مات عطشا**"(فرح، 1977، ص: 100).

هذا وقد حرص العلماء والمشايخ التواتيون علاوة على التدريس، على دراسة مختلف علوم عصرهم والحصول على الإجازات فكانوا يجوبون الأمصار قاطعين مسافات طويلة ملازمين أكابر العلماء، ومن هؤلاء الشيخ عبد العزيز البلبالي الذي قرأ مختصر خليل وكتب التفسير وعقيدة الإمام السنوسي الصغرى وقرأ القرآن برواية ورش وتعلم الأجرومية وألفية بن مالك وحاز على إجازات علمية كبيرة من مشايخ ذلك العصر(فرح، 1977، ص: 100).

كما حرص هؤلاء العلماء أيضا على التأليف في مختلف العلوم، ومقصدهم من ذلك هو إفادة الطلبة وتهذيب المسائل للسائل ومن هؤلاء نشير إلى الشيخ سيدي أحمد بن يوسف التلاني (ت:1078هـ) والذي ألّف كتاب "أصول أهل توات"(جعفري، 2018، ص: 209).

خاتمة:

مما سبق نستنتج أن منطقة توات في العصر الحديث وإن لم تعرف امتدادا للحكم العثماني إلا أنها شكلت حاضرة علمية كبيرة خاصة في القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي وذلك راجع

للزخم الكبير من العلماء الذين توافدوا على المنطقة مما سمح بانتشار الكتاتيب والزوايا والمدارس الدينية.

شكلت تركيبة المجتمع التواتي نقطة قوة، فهذا الأخير تكوّن من القبائل البربرية الصنهاجية والزناتية إضافة إلى العرب الوافدين مع الفتوحات الإسلامية، فانصهار هاذين العنصرين شكّل عنصر قوة وسمح بجعل المنطقة حاضرة علمية، ناهيك عن موقعها الجغرافي الرابط بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي، زد على ذلك اليهود الذين تركزوا في تمنطيط لمكانتها التجارية فهي طريق القوافل.

يأخذ نظام الدراسة في توات بعين الاعتبار عدة معطيات منها سن المتعلم الذي يتم اختياره تبعا لدرجة الاستيعاب والتدرج في التعليم والتدريس بأسلوب استنباطي يمتد من العام إلى الخاص، إضافة إلى الإمكانات المتواضعة والمهمة مع حرص المعلمين التواتيين على ضرورة التكوين من خلال رحلاتهم المختلفة وملازمتهم للعلماء والمشايخ في القرويين والقيروان والقاهرة ونيلهم للإجازات المتنوعة.

بفضل النشاط الحثيث للعلماء العاملين تم إنشاء المدارس الدينية والكتاتيب، أقربيش، والزوايا التي انتقلت من دورها الخيري والتعبدي إلى التربوي والتعليمي، فحافظت المنطقة على مكانتها ومرجعيتها المالكية من خلال الزخم الكبير من المشايخ الذين اعتلوا سدة التدريس والافتاء على المذهب المالكي.

رغم حيوية الحياة الثقافية في منطقة توات إلا أنها مسّت العلوم الشرعية من فقه وعقيدة وتفسير وتحفيظ للقرآن مع إهمال للعلوم العقلية من جبر وحساب وطب وذلك مرده لطبيعة الفترة فالعالم

الاسلامي كان يتخبط في الجمود والركود الحضاري لعصر ما بعد الموحدين كما سماه العلامة مالك بن نبي رحمه اللّه.

قائمة المصادر والمراجع:

1 -باشيخ، أ. و. (2015). دور الزاوية في تنميط الفعل الاجتماعي بصحراء توات. **مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية**، 07(02)، 91 -100.

2 -بقادر، ع. ا. (2014). جهود علماء توات في الدرس اللغوي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين: دراسة في الأنماط والأشكال. **مجلة أفكار وآفاق**، 04(05)، 93 -106.

3 -جرادي، م. (2010). الدرس الفقهي في توات خلال القرنين 11 و12 معالمه وخصائصه. **مجلة المعيار**، 12(23)، 375 -392.

4 -جعفري، ع. ا. (2018). **أطلس العادات والتقاليد بتوات**. مذكرة دكتوراه في الثقافة الشعبية. تلمسان، الثقافة الشعبية: جامعة أبو بكر بلقايد.

5 -حوتيه، م. ا. (2007). **توات والأزواد**. الجزائر: دار الكتاب العربي.

6 -صديق، ح. أ. (2011). **التاريخ الثقافي لتوات**. (éd. 02) الجزائر: دار الحبر.

7 -بن عبد المؤمن، ب. (2008). **الحياة الاجتماعية بإقليم توات بين القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر**، مذكرة ماجستير في الحضارة الاسلامية. وهران، قسم التاريخ والحضارة الإسلامية: جمعة وهران2.

8 -فرح، م. م. (1977). **تاريخ إقليم توات في القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر**. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

9 -قصباوي، ع. ا. (2017, ديسمبر). المنهج التعليمي للزوايا والدارس التواتية. **أعمال الملتقى الدولي حول الوسطية في الغرب الإسلامي ودورها في نشر الإسلام في إفريقيا الغربية.**

10 -مريوش، أ. (2007). **الحياة الثقافية في الجزائر في العهد العثماني**. الجزائر: منشورات المركز الوطني للدراسات.

11 -مقلاتي، ع. ا. (2019). **دور منطقة توات الجزائرية في نشر الإسلام والثقافة العربية بأفريقيا الغربية**. الجزائر: دار الشروق للنشر والتوزيع.

12 -الميلق، ع. ا. (2012). دور محمد بن عبد الكريم المغيلي في مقاومة يهود توات. **حوليات التاريخ والجغرافيا**، 03(06)، 97 -105.